﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [سبأ: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرتِ الآية الأولى من سورة سبأٍ الحمدَ لله ﷻ، وذكرتْ موجباتِه من ملكيّة السّماوات والأرض والتّصرّفِ فيهما، وذلك بحكمته سبحانه وخبرتِه، فهو الحكيمُ الخبير: جاءت هذه الآية بذكرِ شواهدِ حكمتِه وخبرتِه، وذلك لعلْمِه ما يلجُ في الأرض، وما يخرجُ منها، وما ينزلُ منَ السّماء، وما يعرجُ فيها.

فجاءت هذه الآية بمثابة الشّرحِ والبيانِ لصفة الخبير التي وصف الحقُّ بها ذاتَه في ختام الآية السّابقةِ، لأنّ معناه العالمُ علمًا كاشفًا لكلّ شيءٍ، بحيث لا يقع شيءٌ في الوجود إلّا عن علم؛ ومن هذا العلم: ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلِجُ﴾: (ولج) أصلٌ يدُلُّ على دُخولِ شيءٍ[2]، يُقالُ: ولجتُ البيتَ أَلِج ولوجًا إذا دَخلته؛ والمَوْلَجُ: المَدْخَلُ؛ والوِلاجُ: البابُ، والوِلاجُ: الغامِضُ مِنَ الأَرض والوادي، والجَمْعُ وُلُجٌ ووُلوجٌ – الأَخيرةُ نادِرَةٌ؛ لأَنَّ فِعالًا لا يُكسَّر عَلَى فُعول – وهي الوَلَجَةُ، والجَمْعُ ولَجٌ[3]؛ قال الرّاغبُ: الولوجُ الدُّخولُ في مضيقٍ؛ وفسَّره غيرُه: بمطلق الدُّخول[4]، والمرادُ بالولوج في الآية: الدُّخولُ والسُّلوكُ، مثل ولوجِ ماءِ المَطَرِ في أَعماقِ الأَرضِ ووُلوجِ الزَّريعةِ[5].

2) ﴿يَخۡرُجُ﴾: (خرج) أصلان، أحدُهما يدلُّ على النّفاذِ عنِ الشّيء[6]؛ فخرج خروجًا:

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 8/ 774.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولج).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ولج).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ولج).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 137.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).

أي برزَ من مقرِّه أو حالِه، سواء كان مقرُّه دارًا أو بلدًا أو ثوبًا، وسواءً كانت حالُه حالةً في نفسه أو في أسبابه الخارجة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21]، وقال تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ﴾ [الأعراف: 13]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: 47]، والإخراجُ أكثرُ ما يقال في الأعيان، نحو حكاية قولِ المكذِّبين: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: 35]؛ ويقال في التّكوين الذي هو من فعل الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: 53][1].

3) ﴿يَعْرُجُ﴾: (عرج) أصلٌ يدُلُّ على ارتقاءٍ[2]، فالعُروجُ: الصُّعودُ والارتِفاعُ؛ والمِعْراجُ: آلةُ العُروجِ، كالمَصعَدِ والمَرْقى التي يُصْعَد بها مِن أسْفَلَ إلى أعلى؛ يُقال: عَرَجَ إلى السَّطح وإلى السَّماء، يعرُجُ، عُروجًا ومَعْرَجًا، أي: صَعَدَ[3]، والمقصودُ بالعروج في الآية: الصُّعودُ من أسفلَ إلى أعلى[4].

4) ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: (غفر) أصلٌ يدلّ على السّتر[5]، فالغَفر: إلباسُ الشّيء ما يصونه عن الدّنس؛ ومنه قيل: اغفر ثوبَك في الوعاء، وأصبغ ثوبَك فإنّه أغفرُ للوسَخ، والمرادُ التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، والغُفْرةُ: ما يُغطَّى بِهِ الشَّيءُ[6]، والمغفرةُ: سَترُ الذُّنوب بعدم الحساب عليها، والغَفّارُ والغافِرُ: من صفاتِ الله تَعالَى، وهُما من أَبْنِيَةِ المُبالَغَة، ومعناهُما: السّاتِرُ لِذُنوب عِبادِه، المُتَجاوِزُ عَن خَطاياهُمْ وذُنوبِهم[7]؛ والغَفورُ: ذو المغفرة، اسمٌ يتضمَّنُ مُبالغةَ الغفران؛ لِأَنَّهُ تَعالى واسِعُ المَغْفِرَةِ إذْ يَغْفِرُ لِمَنْ لا يُحْصَوْنَ، ويَغْفِرُ ذُنوبًا لا تُحْصَى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّنُ هذه الآيةُ أنَّ الله تعالى يَعلَمُ كُلَّ ما يَدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها: كالمطَرِ، والبُذورِ، والحيواناتِ، والأَمواتِ، والكُنوزِ، وغيرِ ذلك؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَخرُجُ مِنَ الأرضِ: كأنواعِ

(1) الراغب، المفردات: (خرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (عرج).
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 222.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(7) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (غفر).

النَّباتاتِ، والمعادِنِ، والكنوزِ، وغيرِ ذلك، يَعلَمُ عَدَدَه وكيفيَّتَه وصِفاتِه؛ ويَعلَمُ سبحانه كُلَّ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ: كالأمطارِ، والبرَدِ، والثُّلوجِ، والصَّواعِقِ، والأرزاقِ، والملائِكةِ؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَصعَدُ ويَدخُلُ في السَّماءِ: كالملائكةِ، والأرواحِ، وأعمالِ العِبادِ؛ واللهُ هو الرَّحيمُ بعِبادِه، الغفورُ لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[1].

علم الله محيط بالكون

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الجُملة عمّا قبلها:

فُصلت جُملة ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها استئنافٌ في مقام التَّعليل، لبيان إحاطةِ علمِه تعالى بالأشياء التي نيطت بها مصالحُهم الدّينيّةُ والدّنيويّةُ؛ أو لأنّها تفسيرٌ للاسمِ الأحسنِ ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾[2]، فإنَّ الخبير هو الذي يعلم عواقِبَ الأمور وبواطنَها.

الجملةُ في مقام التَّعليل لِما قَبلها والتّفسيرِ والبيانِ

بلاغةُ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ:

لمّا خَتم النَّظمُ الكريمُ بصفة الخِبْرة في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾، أتبعَ ذلك ما يدلُّ عليها من تفصيلٍ لبعض معلوماتِه التي تعلّقُ بها مصالحُ الدّين والدّنيا، فقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾[3]؛ وفي الكلام تَفصيلٌ لِبَعضِ ما يُحيطُ به عِلْمُه تعالى مِنَ الأُمورِ المتعلّقةِ بمَصالِحِهم الدُّنيويَّةِ والدّينيَّة[4]، وفائدةُ هذه الطَّريقةِ البلاغيَّةِ هي أنَّ الشَّيءَ إذا جاء مُجْمَلًا تَشَوَّفَتِ النُّفوسُ إلى تفصيلِه، ثمّ يجيءُ

التّفصيلُ بعدَ الإجمالِ أوقعُ في النُّفوس وأرسخُ في القلوب

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 208، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 259، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 494، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 55، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 674.

(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 4، مدرس، مواهب الرَّحمان، ص: 263.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 442، والصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 3/ 253.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 121.

التَّفصيلُ واردًا على نفوسٍ تتطلَّعُ إليه؛ فالتّعبيرُ أوقَعُ في النَّفْسِ، وأرسَخُ في القلبِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالعلم:

العلمُ صفةٌ تنكشفُ بها حقائقُ الأشياء

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالعلم في قول الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾؛ لأنّ عِلْمَ الله تعالى يمتدُّ ليشملَ كلَّ شيءٍ في هذا الكون، فلا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ؛ فيشملُ علمُه ما يدخلُ في الأرض من حَبَّة أو دودة، أو حشرةٍ أو هامةٍ، أو زاحفةٍ تلج في أقطارها المترامِيّةِ، أو قطرةِ ماء أو ذرّةِ غاز، أو إشعاعِ كهرباء يندسُّ في أرجاء الأرض الفسيحةِ، أو غيرِ ذلك مِمّا لا حصرَ له ولا عدد، تراه عينُ الله التي لا تنام[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾:

علمُ الله باقٍ، وعلمُ غيره فانٍ؛ وعلمُ الله أزليٌّ ثابتٌ، وعلمُ غيرِه زائلٌ فائتٌ

دلَّ التَّعبيرُ بصيغة المضارع من فِعل العلم في قول الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ على أنّ علم الله تعالى على سبيل الاستمرار والدَّيمومةِ، لذا صيغَ هذا الفعلُ مُضارِعًا في الجُملة الكريمة؛ وفي هذا تعريضٌ بمن يشركُ بالله ما لا يسمع ولا يُبصرُ ولا يُغني عنهم شيئًا، ولو ركنوا إلى عبادة ما يعقلُ منَ البشر أوِ الملائكة فإنّ علمَهم لا يوصفُ بالدّيمومةِ ولا بالاستمرار.

ومِمّا تجدرُ الإشارةُ إليه هنا التّفريقُ بَيْنَ المضارع في الإسناد الوضعيّ، وفي التَّنزيل الحكيم: أنَّ الفعل المُضارع في الإسناد الوضعيِّ ينتهي بانتهاء الزَّمنِ والقائلِ، أمّا المُضارع القرآنيّ فهو فعلٌ أزليٌّ باقٍ ثابتٌ؛ والأفعالُ المُضارعةُ في الآية تدلُّ على ثبوت علمِ الله، وأنّها صفةٌ أزليَّةٌ، اختصّ بها ﷻ.

(1) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 24.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 22/ 4368.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾:

شمولُ علمِه وإحاطتِه تعالى بكلِّ ما في الوجود

دلَّ التّعبيرُ بالموصول ﴿مَا﴾ دون غيره منَ الموصولات في قول الله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لإفادتها العمومَ؛ أي: (يعلم ما يدخل في الأرض منَ المياه، والأحياء، والكنوزِ والدَّفائنِ والأمواتِ والحشراتِ والهوامِ ما هو أصغرُ منها، ويشملُ الأشعّةَ والحرارة وأجزاءهما حتى أصغرِ جزء)[1]، ففي التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾ دليلٌ على التَّعميم في جملة الصّلةِ في الآية؛ فيعمُّ كُلَّ ما يلجُ في الأرض ولو بالوضع فيها، وكلَّ ما يخرجُ منها حتَّى الحيوان فإنَّه كُلُّه مخلوقٌ منَ التُّراب، وفيه دليلٌ على شُمول علْمِه وإحاطته بكلِّ كبير وصغير في الوجود، حتّى أصغر أجزاءِ الذّرّة الّذي لا تُدركُ الخلائقُ حدودَه، لبلوغه الغايةَ في الصّغر، فإنَّ الله يعلمُه.

سِرُّ تَكرارِ الموصولِ ﴿مَا﴾:

التَّعريضُ بكُفران المُشركين الذين حمِدوا غيرَ الله

تكرّر التَّعبيرُ بـ﴿مَا﴾ الموصولةِ في قول الله تعالى ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وذلك للتّعريضِ بكُفرانِ المُشركين الذين حمِدوا أشياءَ ليس لها في هذه العوالم أدنى تأثيرٍ، ولا لها بما تحتوي عليه أدنى شعورٍ؛ ونَسوا حمدَ مالكها ومالكِ سائرِ ما في السّماوات والأرض، وفي هذا التَّعريض أيضًا تنبيهٌ إلى غباوتهم بسوء معتقدِهم في إشراكهم الله من لا يملكُ مثقالَ ذرّة في الأرض ولا في السَّماء، وتذكيرٌ لهم بنسبة الفضلِ لله وحدَه، وأن يتوبوا عنِ الشِّرك ليُغفَرَ لهم ما قدَّموه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجُمَل الفعليَّة المُضارِعة:

التّجدُّدُ والحدوثُ مناسبٌ لحركة الحياة الدّائبة المستمرَّة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عنِ الخبر بالجُمَل الفعليَّة في قول الله تعالى ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 259، والمكي، المعين على تدبر الكتاب المبين، ص: 428.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 138.

﴿فِيهَا﴾؛ ليتناسبَ مع حركة الحياةِ الدّائبةِ، من ولوجٍ وخروجٍ ونزولٍ وعروجٍ، في شتّى مناحي الحياة.

فحضورُ الفعلِ المُضارع كان لافتًا للتّدبُّر في الآية: ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿يَلِجُ﴾، ﴿يَخْرُجُ﴾، ﴿يَنزِلُ﴾، ﴿يَعْرُجُ﴾، وإذا استثنينا الفعلَ ﴿يَعْلَمُ﴾ الذي يُشير إلى سعة علمِه وإحاطتِه بكلّ ما يدورُ في الكون، وأنّه لا تخفى عليه خافيةٌ: فإنّ بقيّة الأفعال تعجُّ بالحركة والتّوثّبِ، فهي أفعالٌ تتّسقُ مع حركة الكون الوثّابة، وتُحضرُ بعضًا من صوَرِ الحياة المتجدّدةِ إلى خيال السّامعين.

بلاغةُ الإيجازِ في ذكر المعلومات:

طـوى في هـذه الكلمات حشدٌ هـائـلٌ مـنَ الصّوَر والمعاني والحركات

تعلّق علمُ اللّه تعالى ببعض مظاهرِ علمِه وقدرتِه في العالَم العلويّ والسّفليّ في قول اللّه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وذلك من باب الإشارةِ إلى بعض علمِ اللّه في العالم الأرضي الذي يعيشون فيه؛ فهذه الأرض يعلمُ اللّه سبحانه ما يلجُ فيها، أي ما يَنفُذُ إلى باطنها، ويتسرّبُ إلى أعماقها، فهو سبحانه يعلم كلَّ حبّة في باطن الأرض، ويعلمُ مُستقرَّها ومُستودعَها، ويعلمُ سُبحانه ما يجري في باطن الأرض من ماءٍ كذلك؛ ومن بابٍ أولى في حسابنا: يعلمُ سبحانه ما يخرج منَ الأرض من نبات، وما يتفجّرُ من عيون، وما يَخرُج منها منَ النّباتِ بأصنافه، أو منَ الحشرات المنبعثةِ منها بإرادته تعالى وإجراءِ سنّته الكونيّة؛ ويعلمُ ما ينزلُ منَ السّماء، وما يعرُج فيها: منَ الملائكةِ، والطّيورِ، والأمطارِ، والثّلوجِ، والبردِ، والصّواعقِ، والهواءِ، وسائرِ الموادّ النّازلة منها، وغيرِها ممّا لا يعلمُه إلّا اللّه؛ فيقف الإنسانُ أمامَ هذه الصّفحة المعروضةِ في كلمات قليلة، فإذا هو أمامَ حشدٍ هائل عجيبٍ منَ الأشياء والحركاتِ والأحجامِ والأشكالِ والصّورِ والمعاني والهيئات، لا يصمدُ لها الخيال![1].

(1) الخطيب، التّفسير القرآني: 11/ 774.

سرُّ تخصيصِ علمِ الله بما ذُكر:

ذكرُ علمِ الولوجِ والخروجِ، والنّزولِ والعروجِ يستلزمُ علمَ الجَولِ والدّبيب وغيرِهما

خصّ النّظمُ الكريمُ ما يلجُ وما يخرجُ منَ الأرض بالذّكر في متعلّقِ العلم دون ما يدبُّ على سطحها، وما ينزلُ وما يعرجُ إلى السّماء دون ما يجولُ في أرجائها، في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: لأنّ ما ذُكر لا يخلو عن أن يكون دابًّا وجائلًا فيهما، فالذي يعلمُ ما يلجُ في الأرض وما يخرجُ منها: يعلمُ ما يدبُّ عليها وما يزحفُ فوقَها، والذي يعلمُ ما ينزلُ منَ السّماء وما يعرج فيها: يعلمُ ما في الأجواء والفضاء منَ الكائنات المرئيّة وغيرِها، ويعلمُ سَيرَ الكواكبِ ونظامَها[1].

بلاغةُ المُقابلةِ بين الأفعال:

بيانُ الإحاطةِ بالموجوداتِ الأرضيَّةِ وبأحوالِ الموجوداتِ السَّماويّة

قابل النَّظمُ الكريمُ في قول الله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ بين فِعلَي الولوجِ والخروجِ وبين فعلَي النّزولِ والعروجِ؛ وتدلُّ هذه المقابلةُ على وجوب حَمْدِ الله تعالى وشُكرِه بالقلب واللِّسان، وأنَّ الله تعالى يعلمُ ظواهرَ ملكوتِه وبواطنَه، وتظهرُ دِقَّةُ التَّعبيرِ القرآنيِّ في اختيار المفردات، فكلِمتا ﴿يَلِجُ﴾ و﴿يَخْرُجُ﴾ أوضحُ ما يُعبَّرُ به عن أحوال جميعِ الموجودات الأرضيَّة بالنِّسبة إلى اتِّصالها بالأرض، وكلِمتا ﴿يَنزِلُ﴾ و﴿يَعْرُجُ﴾ أوضحُ ما يُعبَّر به عن أحوال الموجودات السَّماويّة بالنِّسبة إلى اتّصالها بالسَّماء.

بلاغةُ التّضادِّ بين الأفعال:

التَّدليلُ على وحدانيّة الله في علمِه وقدرتِه

تظهرُ بلاغةُ التّضادّ بين الأفعال من قول الله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، حيثُ ولّدَ التَّضادُّ بين الإيلاج في الأرض والإخراجِ منها، والتَّضادُّ بين الإنزال منَ السَّماء والعُروج إليها: معانيَ العلمِ والرَّحمة والقدرة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 137.

والرّزق؛ وهي معانٍ تدلُّ على وحدانيَّة اللّه سبحانه، قهرًا للمشركين الذين اتّخذوا أربابًا من دون اللّه، ويدلّ التّضادُّ على قدرةِ اللّه، قدرتِه على البعث، وقدرتِه على الوحي؛ فذِكرُ الآية ما يلجُ في الأرض وما يخرج منها: كالومضةِ التي تقدَحُ في ذهن المشركين صورةَ دخولهم في قبورهم ثم الخروجِ منها؛ وذِكرُ ما ينزل منَ السّماء وما يعرج فيها: تصويرٌ للوحي الذي كذّبوا به، كما أنّه يتضمّن التّضادُّ بين النّزولِ منَ السّماء والعروج فيها ترغيبًا وترهيبًا؛ بتصوير عروج الأعمال - حسنِها وسيّئِها - إلى الملِك، ثمّ نزولِ ثوابِه على حسنِها أو عقابِه على سيّئِها، وفي هذه الدلالاتِ والإشاراتِ توطئةٌ وتمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ وما بعده منَ الآيات[1].

كما أنّ في هذا التّضادِّ أيضًا دلالةً على تقلّب الأحوال في ملكوت السّماوات والأرض، وعدمِ استقرارها فيهما؛ ويدلُّ على استمرار دورةِ الحياةِ مع اختلاف هيئاتِها[2].

سرُّ التّعبيرِ بالولوجِ:

الولوجُ أدقُّ منَ الدُّخول

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالولوج دون الدّخولِ في قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ﴾ لأنّ مادّةَ الولوج اللّغويّةَ تعني الدُّخولَ في مَضيق[3]، فهي أدقُّ تعبيرًا من كلمة دَخَل، فاللّه سُبحانه يُحيط بكلِّ ما يلجُ في باطن الأرض عن طريق مساماتِها وعُروقِها، مِمّا يلجُ في الأرض بالإيلاج البشريِّ وبلا إيلاجٍ منهم[4].

سِرُّ تقديمِ الولوجِ:

الـولـوجُ يسبقُ الـخـروجَ في الوجود

قُدِّم في الآية الكريمة الولوجُ على الخروج في قول اللّه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ تقديمًا وجوديًّا، حيث إنَّ

(1) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 35.
(2) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 34.
(3) الرّاغب، المُفردات: (ولج)، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 259.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 442.

الولوج هو السّابقُ على الإخراج؛ فينزلُ في الأرض الماءُ، وتُبذرُ فيها البذورُ، وينزلُ فيه الحديدُ منَ الشُّهب المتساقطةِ، ثمّ يخرجُ بعدَ كلِّ ذلك، المياهُ والمعادنُ والنّباتُ، ولا شكَّ أنَّ ما تُخرجه الأرضُ منَ الأرزاق سببُه المطرُ الذي يلجُ في الأرض، فقدَّم النَّظمُ الكريم الولوجَ؛ لأنَّ الشَّيء يغيبُ في التُّراب أوّلًا، ثمّ يُسقى فيخرجُ ثانيًا[1].

بلاغةُ العطفِ بالواو:

إظـهـارُ حُسنِ التّرابُطِ بين هذه الجُمَلِ

تعاقبتِ المُتعاطفاتُ بالواو - دون الفاء أو ثُمّ - في قول الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾؛ لأنّ الواوَ تفيد مُطلَقَ الجمع؛ والوصلُ بين هذه الجُمَل يُعَدُّ من أقوى الرَّوابطِ التي تميَّزت بها الواو في السّورة الكريمة، وممّا يُؤكِّد حُسنَ اختيارها: الاشتراكُ بين هذه الجُمَل في الفعليَّة، وفي الخبريَّة، وعلاقةِ التّقابلِ بين معنى الإيلاج في الأرض والإخراجِ منها، والإنزالِ منَ السَّماء والعروجِ فيها، وعلاقةِ التَّضادِّ بين ﴿يَلِجُ﴾ و﴿يَخۡرُجُ﴾، وبين ﴿يَنزِلُ﴾ و﴿يَعۡرُجُ﴾، وعلاقةِ شِبه التَّضادِّ بين الأرض والسّماء[2]، وهذا الوصلُ بين الجُمل من قَبيلِ التّوسُّط بين الكمالَين، أي كمالِ الاتّصال وكمالِ الانقطاع؛ وهذه العلاقاتُ من رَوْعَة النّظم في الرَّبط بَيْنَ الجُمَلِ[3].

سرُّ ترتيبِ المعطوفاتِ:

مراعـاةُ التّرتيبِ المـنـطـقـيِّ بين المتعاطفاتِ

أفادتِ الواو في قول الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ التَّرتيبَ المنطقيَّ بين المُتعاطفات: فتميَّز ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ المعطوفُ عليه بالتَّقدُّم، لكونه يُبذَر في الأرض أوّلًا، ثم يُسقى بما ﴿يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ولذلك

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 442.
(2) القزويني، بغية الإيضاح: 2/ 57، والميداني، البلاغة العربية: 1/ 594.
(3) حصة الرميح، من بلاغة القرآن في سورة الحج، ص: 298.

عُطِفَ عليه، وعُطِف على ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾، لأنَّه يأتي غالبًا بعد الإيلاج في الأرض؛ كاستخراج كنوزِ الأرض، والإنباتِ بعد البَذر، والبعثِ بعد القَبر، وبدأ بالإنزال منَ السَّماء قبل العروجِ فيها؛ لأنَّ الشَّرائع تنزل بالوحي أوَّلًا، حتّى إذا عرجت أعمالُ العباد حوسِبوا عليها؛ وكما أنّ الأمر الشّرعيَّ يسبقُ عملَ المُكَلَّفين، فكذلك يسبقه الأمرُ الكونيُّ والتّقديرُ الإلهيُّ، ينزل أوّلًا ثمّ تَعرُج أعمالُ العباد على وفق قضاء الله وقدرِه، ولعلَّ ترتيبَ المُتعاطفات لإفادة التَّرقّي في المدح[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ (ما):

إفادةُ العمومِ في الخارجِ منها في عَـدده وكيفيَّته وصفاتِه

دلّ التَّعبيرُ بالموصول (ما) في قول الله تعالى ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ على العموم في كلّ ما يخرجُ منَ الأرض، من أنواع النَّباتِ والزُّروعِ والكُنوزِ والفلذاتِ، والأمواتِ إذا حُشروا، والماءِ منَ الآبار والعيونِ مِمّا يكونُ حياةً وخيرًا كالرِّزق الحَسَنِ، أو عذابًا مُدمِّرًا كالبراكين والزَّلازل، وغيرِ ذلك مِمّا لا يعلمُه إلّا الله[2] في عَدده وكيفيَّته وصفاتِه؛ فيعلمُ ربُّنا أعيانَها ومقاديرَها وأحوالَها ومدّةَ بقائها ووقتَ فنائها[3].

سرُّ عطفِ معلوماتِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الرّبطُ بين الحياةِ المادّيـة والحياة المـعـنـويّـة، وكلاهما مُحاطٌ بعلم الله وخُبره

ذكرَ النّظمُ الكريمُ فعلَ الإنزال منَ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ والعروجِ فيها بعد أمر الولوجِ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ والخروجِ منها، في قول الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾: للرّبطِ بين الحياة المادّيَّة والمعنويَّة، بأنّ ما سبق ذكرُه يتعلّقُ في الغالب بمقوِّمات الحياة المادّيَّة - ومنه إنزالُ الماء - وأيضًا ما يتعلّقُ بحياة الأرواحِ، حيث ينزلُ منَ السَّماء الوحيُ الذي هو رحمةٌ، ثُمَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 279.
(2) الطَّبراني، التَّفسير الكبير: 5/ 224، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 4.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 494، والنَّسفي، تفسير النَّسفي: 12/ 222.

يصعدُ إليها أعمالُ العباد السَّيئةُ، والتي تُقابل منَ الله بالمغفرة، وأنَّ ما ينعمُ به العبدُ منَ الهداية فبسبب الوحي الذي ينزلُ منَ السَّماء[1]، وفي هذا العطف أيضًا تقريرٌ لشموليّة العِلم الإلهيّ؛ فكما أنّه عالمٌ بما يجري في الأرض فهو كذلك غيرُ خافٍ عليه ما فوق هذا العالَم الأرضيِّ، يعلمُ ما ينزل منَ السّماء من ماء، وملائكةٍ، ويعلمُ ما يعرج في السّماءِ ويصعدُ إليها من عالَم الرّوحِ الذي نزل إليها[2].

سِرُّ تقديمِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

ذِكْـرُ الأقـربِ لِما يتعلّق بمعيشة الإنسان

قُدِّم ما يتعلّقُ بالأرض على ما يتعلّقُ بالسّماء في قول الله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ لشدّة ما يمسُّ الإنسانَ في معيشته، وإن كان غيرُه أشرفَ منه؛ لذلك جاء الحديثُ عمّا يلجُ في الأرض وما يخرجُ منها قبل التَّحدُّث عمّا ينزلُ منَ السّماء وما يعرجُ فيها[3].

سرُّ عدمِ عطفِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اسـتـقـلالُ كـلِّ صِـلَـةٍ بـأسـرارٍ مـكـتـنَـزةٍ مـنَ المعاني والصّوَر

لم تُعْطَفِ السَّماءُ على الأرض في قول الله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، فلم يُقَل: (يعلم ما يلج في الأرض والسماءِ، وما يخرج منهما)، ولم يُكتفَ بإحدى الجُملتين عنِ الأخرى[4]، وذلك لاستقلال كلٍّ منَ الأرض والسّماءِ بأسرارٍ تتميّز بها عنِ الأخرى، فلو أنّ أهل الأرض جميعًا وقفوا حياتَهم كُلَّها يَتتبَّعون ويُحصون ما يقع في لحظة واحدة مِمّا تشيرُ إليه الآيةُ: لأعجزَهم تَتَبُّعه وإحصاؤه عن يقين! فكم من شيء في هذه اللَّحظة الواحدة يلجُ في الأرض؟ وكم من شيء في هذا اللَّحظة يخرجُ منها؟ وكم من شيء في هذه اللَّحظة ينزل منَ

(1) المسيري، دلالات التقديم والتأخير في القرآن، ص: 563.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 774.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 23.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 138، والخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 11/ 774.

السَّماء؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرجُ فيها؟ فهذه الكلماتُ (الولوجُ والخروجُ، والنّزولُ والعروجُ) من كلمات اللُّغة التي تَدلُّ على المعاني الموضوعةِ للدَّلالةِ عليها دلالةَ مُطابقةٍ على الحقيقة دون المجاز ودون الكناية.

دلالةُ إفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

إرادةُ مُطلَق العُلوِّ، الدّالّ على إحاطة الله تعالى بكلّ الملكوت عِلْمًا ومُلْكًا

أفرد النَّظمُ الكريمُ لفظَ السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، مع إيراده مجموعًا في الآية السّابقة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ المُراد هو مطلقُ العلوّ؛ والآية تعريضٌ بمُنكِري البعث، الذين لا يُدركون بحواسّهم سوى السّماءِ الدُّنيا، فلذلك أُفردت، وعند تأمُّل الآيتين يتبيّنُ أنّ الأولى قرّرت ملكَ السَّماوات والأرض لله، والثّانيةَ أبرزت جانبًا من مظاهرِ إحاطتِه وعلمِه بهذا الملكوت، الذي لا يُنكرُه المشركون؛ وفي هذا تحريضٌ لهم إلى أن يتفكّروا في أنفسهم، فما خلْقُهم بأكبرَ من خلق السّماء والأرض، وليس يعسُر على الله بعثُهم بعد موتهم[1].

دلالةُ التَّعبير بالعروج:

الدَّلالةُ على النُّفوذ والتَّمكُّن في الصُّعود، من غير الدّلالة على المشقّة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعروجِ دون الصعود في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ للفرق بينهما؛ فالصّعودُ هو الذّهابُ في المكان العالي، يستعمل لكلِّ شاقٍّ، بخلاف العروج، فهو الذَّهابُ في صُعودٍ إلى أعلى؛ والسَّماءُ جهة العُلوِّ مُطلقًا[2]، وعبَّر النَّظمُ الكريمُ بالعُروج ليُفهَم نفوذُه فيها وصعودُه وتمكُّنه فيها[3].

أسرارُ تعديةِ العُروج بـ(في):

علمُ الله تعالى لا يحدّه شيءٌ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ باستعمالِ حرفِ الظّرفيّةِ (في): ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، ولم يُقَل: (وما يعرج إليها)، لأنَّ الأصل في (إلى)

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 33.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 264.
(3) الشربيني، تفسير الخطيب الشربيني: 3/ 347.

أن تكون لانتهاء الغاية[1]، والعدولُ عن ذلك لِأن لا يُفهمَ أنَّ عِلْمَهُ يقفُ عند حدود الشّيء، المفهوم من معنى (إلى)، بل إنَّ علمه نافِذٌ ليس له حدودٌ؛ فضُمِّن العروجُ معنى السَّير أوِ الاستقرار، فلذا عُدّيَ بـ(في) دون (إلى)، فاختيارُ (في) لفائدتين: العروج - أي الصُّعود - مع الدُّخولِ؛ لأنَّ (في) يُناسِبُها مِنَ الأفعالِ: الدُّخولُ، أمّا العروجُ فالَّذي يُناسِبُه: (إلى)؛ لكِن عُدِلَ عن قَولِه: (يَعرُجُ إليها) إلى قَولِه: ﴿يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ ليُفيدَ الصُّعودَ والدُّخولَ معًا، وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار التَّضمين، فالمُرادُ بما يعرج فيها: (ما يعرج في ثخن السَّماء)؛ ويُفهَمُ من علمِ اللّه بذلك علمُه بما يعرج إلى السّماء من بابٍ أولى[2].

وممّا يُذكرُ في سرّ التّعبيرِ بالظّرفيّة: أنّه لدفعِ توهُّم أنَّ أعمال العباد تعرجُ إلى سماء الدُّنيا فقط؛ لأنّه لو قيل: (وما يعرج إليها) لَتوُهِّم أنَّ الأعمال تعرج إلى السّماء الأولى فقط، والمنقولُ أنَّها تعرج في السَّماوات السَّبع، وتصعدُ إلى أعلاها[3]، وفيه إشارةٌ إلى قَبولِ الأعمالِ الصّالحةِ، ومَرتبةِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ، لأنَّ كَلِمةَ (إلى) للغايةِ؛ فلو قيل: (وما يَعرُجُ إليها) لفُهِمَ الوقوفُ عندَ السَّماواتِ، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾، ليُفهَمَ نُفوذُها فيها، وصعودُها منها؛ ولهذا قال في الكَلِمِ الطَّيِّبِ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، لأنَّ اللّه هو المنتهَى، ولا مرتبةَ فوقَ الوصولِ إليه؛ وأمّا السَّماءُ فهي دنيا، وفوقَها المنتهَى[4].

بيانُ أنَّ الأفعال السّابقةَ في الآية من آثار الرَّحمة والمغفرة

دلالةُ العطفِ بِذِكْرِ الرَّحمة والمغفرة:

عطفَ النّظمُ الكريمُ جملةَ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ إشارةً إلى أنَّ

(1) السامرائي، معاني النَّحو: 3/ 16.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 104.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 314.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 191.

ما يلج في الأرض وما يخرج منها هو هذه الرَّحمةُ التي تنزل ماءً منَ السَّماء، فتلج في الأرض، فتخرجُ منها حبًّا ونباتًا وجنّاتٍ ألفافًا، وفي هذا حياةُ كُلِّ حيٍّ طعامًا وشَرابًا؛ ثُمَّ إشارةً أخرى إلى ما ينزل منَ السَّماء من آيات الله وكلماته، يحملها أمينُ الوحي إلى المُصْطَفين من عباد الله لرسالته، فيكونُ فيها حياةُ الأرواح، وتزكيةُ النُّفوس[1]، فالله رحيم عند الإنزال، حيث ينزلُ الرِّزقَ منَ السّماء، غفورٌ عند ما يعرج إليه الأرواحُ والأعيانُ والأعمالُ[2].

دلالةُ مجيءِ صفة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغة فعيل:

الدّلالةُ على المُبالغة في الرَّحمة الدّالّة على الإنعام

جاءت صفةُ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ صفةً مشبَّهةً مأخوذةً منَ الرَّحمة، وهي مبنيّةٌ على وزن (فعيل) الّذي هو من صيَغ المُبالغة؛ لأنّه يدُلُّ على رحمة الله العظيمةِ الواسعةِ، الّتي وسِعت كُلَّ شيء، ورحمةُ الله ﷻ صفةٌ من صفاته الذّاتيَّةِ على ما يليق بجلاله، ومن آثارها: الإنعامُ والإكرامُ، والعفوُ والغفرانُ.

لطائفُ تقديمِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾:

تقديمُ ما يدلُّ على العموم قبلَ ما يدلّ على الخصوص

انفردت هذه الآية دون سِواها بتقديم الرَّحمةِ على المغفرة في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، ولم تتقدَّم عليها إلّا في هذا الموضع؛ وتقديمُ الرّحمة على المغفرة إمّا بالفضل والكمال، وإمّا بالطّبع؛ لأنّها مُنتظِمةٌ بذكر أصناف الخلق منَ المكلَّفين وغيرِهم منَ الحيوان، فالرَّحمة تشملُهم، والمغفرة تخصُّهم، والعمومُ بالطّبعِ قبل الخصوص، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: 98]، وتقديمُ الرّحمةِ في هذا الموضِعِ أيضًا لتقدُّمِ صِفةِ العِلم، فحَسُنَ ذِكرُ الرَّحيم بعدَه، ليَقترِنَ به فيطابِقَ قَولَه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 775.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 5، والزِّين، بيان النَّظم: 3/ 373.

[غافر: 7] الآيةَ التي خُتِمَت بذِكرِ صِفةِ المغفرةِ، فالمغفرةُ تتضمّن دَفْعَ الشَّرِّ، ويتضَمّنُ ما قبْلَها منَ الرّحمة والعلم جَلْبَ الخَيرِ؛ ولَمّا كان دفْعُ الشَّرِّ مُقدَّمًا على جَلبِ الخيرِ قُدِّم اسمُ الغَفورِ على الرَّحيمِ حيثُما وقَعَ، لكن لَمّا كان في هذا الموضِعِ تعارُضٌ يقتضي تقديمَ اسمِ الرَّحيم - وهو الاقتران بصفة العلم - قُدِّم على الغَفورِ[1].

ومن لطائف تقديم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: تقديمُ الرّحمةِ الجالبةِ للمصالحِ والمنافعِ، والتّثنيةُ بالمغفرةِ الدّافعةِ للمصائب؛ فمن آثار الرّحمةِ ما يكون في السّماء والأرض منَ المصالح الدّينيّةِ والمنافع الدّنيويّةِ، وأمّا المغفرةُ فهي محوُ الذّنب والوقايةُ ممّا يترتّب عليه منَ المكروهات والآثار السّيّئةِ؛ فقُدّمَ ما يجلبُ الخيرُ على ما يدفعُ الضّرّ، ومن لطائف التّقديم كذلك أنّ اللّه رحيمٌ بالإنزال حيث يُنزلُ الوحيَ والرّزقَ منَ السّماء، غفورٌ عند ما تعرج إليه الأرواحُ والأعمالُ؛ فرحم أوّلًا بالإنزال، وغفر ثانيًا عند العُروج[2]، لأنّه لا يخلو عبدٌ من ذنبٍ يقعُ فيه، ومنها أيضًا أنّ المغفرة تقي العبدَ من عقاب اللّه وغضبِه، ورحمةُ اللّه سبقت غضبَه[3].

وممّا يُذكر في سرِّ التّقديم أنّه من باب تقديم الوصْفِ النّاظر إلى التّكميل على الوصف النّافي للنّقص؛ وهذا المعنى أشار إليه أسلوبُ التّقديم بما أثاره في الوِجدان من استشعارِ رحمة اللّه وحلْمِه وعفوِه، ممّا يكون دافعًا روحانيًّا للإقبال عليه والابتهالِ إليه؛ فرحمتُه سبقت غضبَه، والكلامُ جاء في سياق الحمد، فناسب تقديمُ الوصفِ النّاظرِ إلى التّكميل على الوصْفِ النّافي للنّقص[4].

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ مادّة وصيغة:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ باسمِ الغفور في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ لأنّه اسمٌ من أسماء اللّه الحسنى دالٌّ على أنّه يَسترُ ذنوبَ عباده إذا استغفروا وتابوا إليه؛ ويلزمُ من سَترها أن يتجاوز عن محاسبتِهم ومؤاخذتِهم عليها؛ لأنَّ الغَفْر في اللُّغة السَّترُ، وهذا المعنى مناسبٌ لعموم المكلَّفين، لأنّهم بطبيعتهم يقعون في المعصية؛ وجاء الاسمُ

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 80، والسُّهلي، نتائج الفكر، ص: 213.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 191.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 25.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 443، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 3/ 278.

لينادَى على الإنسان: إذا استغفرت اللّهَ وجدتَه غفورًا لكلِّ ذنوبك ما لم تُشرك به شيئًا، بل وجدتَه على الغاية في صفة الغفران؛ يؤكِّدُ هذا أنّه جاء على صيغة (فَعول)، وهذه الصّيغةُ تدلُّ على كثرة الفعل ودوامِ الاتّصاف به.

سَتْرُ ذنوبِ المُذنبين والتَّجاوزُ عن محاسبتهم

بلاغةُ التّذييلِ بصفَتَيِ ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾:

ختم اللّه هذه الآيةَ باسْمَيْن عظيمَيْن جليلين من أسمائه الحسنى - ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ - لِما فيهما من إطماع المُذنبين والعُصاة - مهما بلغت معاصيهم - أن يستغفروه ويتوبوا إليه حتَّى يغفرَ لهم، ويتوبَ عليهم بفضله وإحسانه وعظيم رحمتِه؛ يؤكّد هذا البناءُ اللّغويُّ للاسمين الكريمين: ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، أي الواسعُ الرَّحمة، الواسعُ المغفرة.

إطماعُ المُذنبين والعُصاة في رحمة اللّه ومغفرته

وفي هذا التّذييلِ حَثٌّ للنّاس على طلب أسبابِ الرَّحمة والمغفرة المرغوبِ فيهما، فإنَّ من رغِب في تحصيل شيءٍ بَحَث عن وسائلِ تحصيله وسعى إليها؛ وفيه تعريضٌ بالمُشركين أن يتوبوا عنِ الشِّرك فيغفر لهم ما قدَّموه.

سرُّ اختلافِ فاصلةِ هذه الآية عن سابقتِها:

خُتمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، وخُتمتِ الآية السّابقةُ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وقد يُتوَهَّمُ عدمُ دِقّة الفاصلة، وأنّ المناسِب أن تُختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ لِما اشتملت على إيجاب الحمد على نعمة الدّارَين ليرحمَهم اللّهُ، ويغفرَ لهم ما إن عسى أن فرطوا فيه، وأن تُختمَ الآيةُ الثّانية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لمناسبة العلم الحكمةَ والخبرةَ.

تكميلُ ذِكرِ مُلك اللّه بالإحكام والخبرة، وتتميمُ ذكرِ أفضالِ اللّه بالرّحمة والمغفرة

وأجاب عن هذا التّوهُّم الإمام الطّيبيُّ مبيِّنًا دِقَّةَ الفاصلة لكلِّ آية، وأنّها مُحكَمةٌ وبليغةٌ، بقوله رحمه اللّه: "خولِف ليتكاثر المعنى، ويحصُلَ التّتميمُ والتّكميل؛ فدلّ انضمامُ الأولى بفاصِلَتها الدّالّةِ

على نوعٍ منَ العلم على معنى التّكميلِ، وأنّ اللّه تعالى - كما أنّه مُنعِمٌ في الدّارَيْن - كذا يُحْكِمُ أمورَهما على وجهٍ قويٍّ رصينٍ، ويعلمُ ما يصدرُ عنِ العباد من تفاصيلِ الحمدَين، ليَجزيَهم بها على وجه التّمامِ والكمال، وانضمامُ الثّانيةِ بفاصلتها آذَنَ بالتّتميم لِما يستلزمُه معنى قولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية، منَ الامتنان بموجب الحمد من فضائله المتكاثرة، ومنَ التَّفريطِ فيما أوجب عليهم منَ الشّكر على تلك النّعمة الجسيمة؛ لذا عقّبه بهذين الوصفين ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ تتميمًا للمقصود، ولو أُجريَ الأمرُ على الظّاهر كما توهّم البعضُ لفاتَ أكثرُ تلك الفوائد، واللّه أعلم بأسرار كلامه"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الولوج والدُّخول:

الولوجُ هو الدُّخولُ في مضيقٍ[2]؛ فهو الدُّخولُ والسُّلوكُ، مثلُ وُلوجِ ماءِ المَطَرِ في أَعماقِ الأَرضِ، ووُلوجِ الزَّريعةِ[3]، أمّا الدّخولُ، فهو نقيضُ الخروجِ؛ ويُستعملُ ذلكَ في المكانِ، والزّمانِ، والأعمالِ[4]، قال تعالى ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر: 29 - 30]، فالولوجُ يكون في شيءٍ يحتاجُ إلى ضيقٍ، والدُّخولُ أوسعُ معنًى.

الولوجُ يكونُ في شيءٍ يحتاجُ إلى ضيقٍ، والدُّخولُ أوسعُ منه معنىً

المغفرة والرَّحمة:

الفرقُ بينَ المغفرة والرّحمةِ أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[5]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[6]، وأحدُهما سببٌ في الآخَرِ، فرَحمةُ اللّه سببٌ في مغفرة ذنوب عبادِه، كما أنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ في البشر

المغفرةُ سَتْرٌ للذَّنب السّابق، والرَّحمةُ تحصيلٌ للمطلوب اللّاحق

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 499.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ولج).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 137.
(4) الراغب، المفردات: (دخل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).

يوجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ، ولله المثلُ الأعلى[1]؛ هذا باعتبار أوصافِ الخالقِ سبحانه، أمّا باعتبار فعْلِ المخلوقِ: فإنّ الاستغفار وطلبَ المغفرة هو الجالبُ للرَّحمة والسَّببُ فيها، كما قال تعالى ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النَّمل: 46].

ومنَ الفروق بينهما أنَّ المغفرة والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى منَ الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة مِنْها فيما يُستقبَلُ[2]، ومنها أنَّ المغفرة فيها زَوالُ المكروه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المطلوب[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 435، 2/ 258.
(2) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 66.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»